المرأة في كتابات بولس:
"أيتها النساء إخضعن لرجالكنّ "
أم "أخضعوا بعضكم لبعض" (أف ٥:٢١)
مؤتمر جامعة الحكمة شباط ٢٠٠٩

الأخت باسمة الخوري

الأنطونية

"أيتها النساء اخضعن لأزواجكن" (اف ٥: ٢١)؛ "جسد المرأة ليس لها بل لزوجها" (اكو ٧:٤). "لتصمت النساء في الجماعات" (١ كو ١٤:٣٣). من الواضح ان بعض المراجع في كتابات بولس تجرح مشاعر المرأة وكرامتها في الصميم، كما تجرح عمق العلاقات بين النساء والرجال.
فماذا أراد بولس أن يقول؟

عندما طُلب إليَّ للمرّة الأولى دراسة موضوع "المرأة في الكتاب المقدس"، ووصلت الى كتابات القديس بولس، كان الأهين إليّ العمل على تبرئة بولس من إعلانات كالتي قرأناها أعلاه، ومحاولة إيجاد البراهين العلميّة التي تؤكّد نسبتها إلى غيره، والانكباب بالتالي على دراسة ما كتبه هو بخطّ يده، وشرح ما نُسب إليه من نصوص قاسية لا يقبلها إنسان اليوم. وكان من المريح التوصّل إلى الجزم بأن تلميذًا من تلاميذه، يعرفه القرّاء، هو من كتب هذه الأسطر المزعجة. وإن وجدنا أنفسنا مضطرين للانصياع الى ان بولس هو من كتب ذلك، فالمخرج الأسلم هو في القول انه تكلم في ظروف معيّنة وثقافة معيّنة، وأن ما كتبه لا ينطبق بالتالي إلا على تلك الظروف، مما يعني ان هذه التعاليم لا تعنينا اليوم!
ولكن هل فهمنا فعلاً ماذا أراد بولس أن يقول؟ هل فهمنا معنى طلب خضوع "المرأة للرجل" في أف ٥:٢١؛ وسبب طلب صمت النساء في ١ كو ١٤:٣٣؛ وإطار التأكيد عدم ملكيّة المرأة لجسدها في ١ كو ٧:٤؟

لنفهم كل هذا، علينا أولاً ان نقرأ كل رسالة وردت فيها أقوال صعبة كهذه، قراءة متواصلة، وبصوت عالٍ. عندها تأخذ إرشادات الرسول بولس في مكانها في سياق النص، ويتّضح للقراء أنها ليست موضوع الرسالة الأساسي، فيفهمون نفسية بولس، الذي يتكلم بحرارة القلب المشتعل بعد لقائه بالحيّ القائم من الموت ويعون ان هذه الارشادات هي في مكانها تمامًا. طالما فهما آراء بولس الرسول بشكل مغلوط، فجعلناه يقول ما لا يقوله، ولم نستوعب ما أراد أن يُعلن.

نحن، في الحقيقة، نقرأ من خلال ثقافتنا وفكرنا وقناعاتنا، فنجعل النص يقول ما نعرف وما نحيا، وكأننا نفهم ما نقرأ، قبل أن نقرأ. عندما يتعلّق بنصّ معاصر، لكن الخطر حقيقي أكيد عندما يطال ما ليس من ثقافتنا الراهنة. وقع

بولس ضحية هذه القراءات الخاطئة، خاصة وانه كُتِبَ في إطار تاريخي واجتماعي وديني وسيكولوجي غريب جدًا عنا. والأخطر هو ان هذه القراءات طبعت تاريخ الكنيسة، ولاهوتها، والأخلاقيات المسيحية، والفكر الشعبي.

من هو بولس وماذا اراد أن يقول؟

بولس هو من أدركه المسيح فصار إنسانًا وصلته البشارة، فحملها بشرى للناس. هو المؤنجَل الذي تحوّل مؤنجِلاً. بعد انكشاف الله له، وتجلّي محبته من خلال تجسّده وتخلّيه عن ألوهته.وعّى بولس إنسانيّته وكرامته في نظر الرب، فتحوّل الى أمّ (١تس ٢: ٥—٨) وأب (١كو٤: ١٤-١٥). تحرّر، فصار محرِّرًا وحمل رسالة تحرير لكل انسان منغلق، في أي عبودية كانت، وحيثما كان. وكل قراءة مغايرة لهذه الرسالة هي خيانة لفكر بولس.

لكن المشكلة هي أن الانجيل تحوّل عبر الزمن الى مجموعة دروس تربية، وأخلاقيات مستندة إلى شريعة الله العلي، القدير، البعيد، العادل، الحاكم، الذي لا يساوِم، والذي يتطلّع بعينيّ ابنه المصلوب الى ملذّات العالم كأنها خطايا. قراءة الإنجيل بهذه الطريقة، هي في الحقيقة خيانة للإنجيل، جعلتنا نصبح غرباء عن "مشروع الله الخلاصي" (اف ١: ٩)
خلال القرن الماضي بدأت فكرة أهمية الانسان كشخص أمام الله تأخذ مكانها، وبدأت أهمية العدالة والحقوق الطبيعية تتركّز في الأفكار. فهم اللاهوتيون أهميّة الانتباه إلى المستوى الإنساني في كل خبرة روحيّة، وإلى أهميّة إدخال هذه الخبرة في تاريخ شعب الله الذي اختبر علاقة خاصة مع الله، من خلال تفاصيل حياتية واقعية، وفسّرها بشرٌ انبياء ونبيات.
إن هدف الوحي، هدف الانجيل هو سعادة الإنسان (لخلاصنا)، وقد أراد الله أن نكون في المحبة (اف١:٤) أي في سعادة دائمة في حضرته.
تجسّد ابن الله وشارك البشر خبرتهم اليومية، ودعى بعضهم لتذوّق هذه العلاقة (تت ٤: ٢٠): العهد يخلق علاقات عائلية بين الله وخاصّته (إر ٣: ١٩-٢٠)، كعلاقات زوجية حميمة (نش ٢: ١٦). عاش بولس في قلب هذه العلاقة وكان "لا غبار عليه في الشريعة" (فيل ٣: ٥). دافع عن الشريعة والعهد بغيرة متّقدة (غل ١:١٤ ؛ رو١٠: ٢)... ثم أدركته البشارة!

عندما كشف يسوع المسيح نفسه لبولس، أدرك إنسانًا معروفًا من الله ويعرف الله (غل ١: ١٥ ؛ فيل ٣:٧ — ١١) كان بولس ابن الشريعة انسانًا روحيًا. تخلّص من التزامه الفرّيسي وتاب عن اضطهاده الكنيسة، وعرف بكل كيانه، بعد أن أدركه يسوع القائم من الموت، انه "أُفرِد من بطن أمّه ليبشّر بالمسيح يسوع ربنا بين الوثنيين" (غل ١: ١٦). توَّب بولس قناعته المتزمّتة كابن من أولاد شعب الله الذين طالما افتخروا بميزتهم الخاصة هذه، ليكون في خدمة شعب الله المؤلف من البشرية قاطبة. "الويل لي إن لم أُبشِّر..." (١كو ٩: ١٦ — ٢٣)

والمرأة في كل هذا؟

قبل البدء بدراسة موضوع رأي بولس بالمرأة يجدر بنا الانتباه إلى أن رسائل بولس ليست مطويات دعائية لإعلان الإنجيل، بل نصوص كُتبت لإكمال تبشير لقناعتهم القرّاء ومتابعتهم وتثبيتهم. يتوجّه بولس دائمًا إلى مؤمنين مبشَّرين لإنجيلين يسعون إلى توجيه حياتهم لتحقيق ما بدأه الله لخلاصهم "انهم في مسيرة خلاصية" (١كو١: ١٨ ؛ ٢ كو٢ :١٥ ؛ ١تس١: ١١). ولأن البشارة المسيحيّة لا تعني إنتقاد الصعوبات والتجارب، يبقى المسيحيّون بحاجة دائمة الى تشجيع على الأمانة والثبات (فيل١: ٢٧ – ٢٩) وهذا ما أخذ بولس على عاتقه القيام به في رسائله.

لكن بولس يتوجّه في الوقت إلى مبشِّرين مؤَنجِلين. فالمسيحيّون ليسوا مجرّد مستمعين يسعون إلى قبول البشارة وحسب، بل هم

يريدون ويرغبون بنقل سعادتهم وفرحهم الى أكبر عدد ممكن من الأقارب والأبعاد بأسرع ما يمكن (أف ٣: ٦؛ ١كو٩ : ١٢). على هذه الخلفيّة، وبهذه الروحيّة يمكننا الغوص في نصوص القديس بولس عامة، وفي موضوعنا حول المرأة في كتاباته ووجوب خضوعها للرجل بشكل خاص.

I – اف ٥: ٢١ – ٦ : ٢٠ نصّ يتطلّب قراءة خاصة

هذا النص هو من أصعب النصوص البولسية، نظرًا لحساسيتنا المفرطة اليوم تجاه كلام كهذا. لفهمه يجدر بنا اولاً الانفتاح من النص إلى إطاره، فنقرأ كامل الرسالة إلى أفسس.

يتمحور موضوع الرسالة الأساسي حول نقطتين محوريتين، النقطة الأولى هي مشروع الله الخلاصي، والنقطة الثانية هي الاقتداء بالمسيح.

أ – مشروع الله الخلاصي (١-٣) يمكن تلخيص لاهوت القديس بولس حول موضوع الخلاص بالتالي: الآب أرادنا جميعًا أولادًا له؛ الابن افتدانا بدمه؛ الروح أعطانا رجاء الخلاص. أما مفاعيل مشروع المحبة هذا، فمصالحة كل البشرية، يهودًا ووثنيين، وجمعهم في شعب واحد. جعل بولس من نفسه شريكًا في هذا التصميم الخلاصي، فكان رسول البشرى السارة.

ب – الاقتداء بالله (أف٤) بعد إعلان مشروع الله الخلاصي، يأتي قسمٌ يسميه الشرّاح عادة "توصيات"، أي تشجيع على حياة تليق بالدعوة التي تلقيناها (أف٤ : ١)، وينتج عنها مفاعيل عملية، والتزامات واقعية عملية. أما ترجمة هذه الالتزامات فحياة أخوية على ضوء سرّ المسيح، وعلاقات إنسانية تحوَّلت تمامًا بنعمة الروح، ولو أنها لم تتجدّد بشكل سحري. في هذا الإطار، يعتبر بولس أنه يعود إلى كل إنسان أن يتوِّب نظرته لذاته وللآخرين، وان يقوِّم بشكل دائم علاقته بالله، وبالآخرين، وبالخليقة[1]. فمن يعتقد أنه يفهم ما يعلم بولس في هذا النص، فينتقل مباشرة الى الوصايا العملية، يضيع المعنى لأنه لا قيمة لهذه الوصايا في نظر بولس إن لم تؤدي الى الاقتداء بالله وإلى الطاعة

[1] اف١:٤ – ٧ ، ١١ – ١٣، ١٥ – ٢٤، ٣١ – ٢:٥، ٨ -١١

لابنه. المطلوب قبل تطبيق الوصايا، توبة إلى الإنجيل، من دونها لا تكون وصايا بولس سوى شرائع بشرية دون قيمة، تمامًا كتلك التي يرفضها في كو٢: ١٦ – ٢٣ .

إخضعوا بعضكم لبعض... (اف٥: ٢١)

"اخضعوا بعضكم لبعض" هي الآية الأولى في هذا النص. يأتي الفعل "إخضعوا" (hypotassomenoi) في صيغة جمع المذكّر، بمعنى ان الوصيّة تطال الرجل والمرأة على حدٍّ سواء.

بعد هذه الوصيّة التي يوجّهها الرسول بصيغة الجمع، يبدأ بتعداد الأشخاص الذين تنطبق عليهم الوصيّة: المرأة لزوجها (٥: ٢٢)؛ الزوج لامرأته (٥: ٢٥)؛ الاولاد لوالديهم (٦: ١) ؛ العبيد لأسيادهم (٦:٥)...[٢] تأتي عبارة "المرأة لزوجها" دون فعل يسبقها، فلا نقرأ في المخطوطات القديمة: "أيتها النساء إخضعن لأزواجكنّ"، كما هو الحال في المخطوطات المتأخّرة التي أضافت فعل أمر: "إخضعن" (hypotassethe) أو فعل مضارع بصيغة الأمر "لتخضع".

بالحقيقة، يتماشى التقليد الأقدم المكتوب، بشكل أكبر مع أسلوب بولس المقتضب في إدراج التوصيات، بحيث يعطي الفعل ويدرج بعدها سلسلة من يعنيهم الأمر، إما إدخال الفعل لاحقًا فيمكن تفسيره بالرغبة في التوضيح، أو لضرورات ليتورجيّة كانت تفترض تقسيم النص إلى مقاطع صغيرة بحيث تبدأ القراءة الجماعيّة في آ٢٢، مما يلغي الفعل hypotassomenoi (في آ٢١)، ويُجبِر على إعادة كتابة فعل يتوجّه إلى النساء في صيغة جمع المؤنّث.

انطلاقًا من هذه الملاحظة، يجدر بالقارئ الانتباه الى توازن النص بعد التوصية "ليخضع بعضكم لبعض" (٥: ٢١).

اف ٦: ١ – ٢٠ لا النساء فقط

أ – **الأولاد والعبيد**.

مجرد نظرة سطحية للنص تسمح بالاستنتاج بأن النساء لسن الوحيدات اللواتي تلقين من بولس نصيحة خاصة. "أيها الأولاد أطيعوا (hypakouete) والديكم" (اف٦: ١)؛ "أيها العبيد أطيعوا (hypakouete) أسيادكم" (اف٦: ٥)، ولائحة الأشخاص المدعووين لمطابقة تصرفهم على مثال المسيح تطول:

١- بعضكم لبعض ٥: ٢١
٢- النساء والأزواج ٥: ٢٢
٣- الأزواج والنساء: ٥: ٢٥
٤- الأولاد والوالدين ٦: ١
٥- الوالدين والأولاد ٦: ٤

[٢] غالبية النصوص القديمة، تدرج الآية المتعلّقة بالمرأة دون فعل أساسي، مما يسمح بالظن بانها تطبيق للفعل السابق كما في تعداد لائحة تطبيقات.

٦- العبيد والأسياد ٦: ٥

٧- الأسياد والعبيد ٦: ٩

٨- الأفسسيين تجاه أعداء من لحم ودم ٦: ١٢

٩- الأفسسيين تجاه أرواح البشر ٦: ١٢

١٠- الأفسسيين مع القديسين ٦:١٨

١١- الأفسسيين مع بولس ٦: ١٩

يظهر من هذا الجدول أن آ ٥: ٢١ هي الوحيدة التي ليس لها مقابل، في حين يشرح بولس فكرته طيلة الجدول من خلال ثنائيات. يبدو إذًا أن آ ٢١ تلعب دور العنوان، فتشكّل الإعلان العام لكل النصائح التي تلي، مما يعني أن لكل العلاقات بين الرجال والنساء، وبين الوالدين والأولاد، وبين العبيد والأسياد، معاملة متوازية تحصل فيها كل علاقة على النصيحة الخاصة بها. أما الرقم ٨ و ٦ في اللائحة فالنصيحة تتوجّه إلى كل الأفسسيين الذين يعانون من مضايقات الأعداء الدينية أو الاجتماعية أو السياسية، ليلفت بولس نظرهم الى حقيقة هؤلاء الأعداء (أرواح الشر) ويوجّههم بالتالي إلى ضرورة محاربة الخطايا وليس الخاطئين. أما العلاقة في الرقمين ١٠ و ١١ فتهدف إلى تقويم تصرفات أهل أفسس مع المسيحيين الآخرين، بحيث ترتكز على صلاة التشفّع ليُعلَن الانجيل (٦: ١٩) .

ب – **ثلاثيات**

هذا النوع من التوصيات بالطاعة أو الخضوع لا يتوجّه أبدًا الى فئة واحدة من الناس، بل غالبًا ما يتوجّه إلى ثلاثية فئات تتألّف من النساء، والعبيد، والمواطنين[٣].

درجت العادة عند بعض الشرّاح الألمان على اطلاق عنوان "قواعد بيتية" على هذه الإرشادات، لكن الواضح أن هذا الأسلوب لا يتعلّق بالعلاقات الداخلية بين أهل البيت الواحد وحسب، بل ينطبق أيضًا على علاقات المؤمنين في داخل الجماعة المسيحية، وعلى علاقتهم تجاه الرسالة الانجيلية الموكولة اليهم لينقلوها الى العالم بأسره. عندما نضع هذه المقاطع المتعلقة بالخضوع في إطار التوصيات الموجّهة إلى ثلاثية النساء مع أزواجهن، والعبيد مع أسيادهم، والمواطنين مع حكامهم، يتّضح المعنى المقصود منها.

ج – **بشرى كرامة لكل شخص بشري**

[٣] رج. تيطس ٢: ٥ ؛ ٢: ٩ ؛ ٣: ١ ؛ كو٣: ١٨،٢٢؛ ٤٣:٢ – ٦ ؛ أف٥: ٢٢ ؛ ٦: ٥ ؛ ١٠: ٢٠ ؛ ابط٢: ١٣ ، ١٨ ؛ ٣: ١؛ مع ان هذا يصحّ أيضًا على الأطفال (لكن وضعهم خاص لضرورة خضوعهم كونهم قاصرين) .

بالإنجيل حصل أفراد هذه الفئات على كرامة تامة واعتراف كامل بشخصهم وبدعوتهم، بشكل لم يسبق له مثيل في تلك الحقبة. كان هناك بالطبع نساء تتمتعن بسلطات واسعة، على مثال أغريبين أم نيرون؛ وكان هناك مواطنون مقرّبون من الامبراطور ولكن بحسب رغبته الخاصة فقط؛ وكان هناك عبيد محرَّرون او عبيد محترمون، على مثال العديد من مستشاري الامبراطورية وموظّفيها؛ لكن هذه لم تكن القاعدة أبدًا. أحدثت المسيحية انتفاضة اجتماعية فورية على هذا الصعيد (غل ٣: ٢٦– ٢٨)، ولم يعد من الممكن الإبقاء على بعض أشكال التمييز. لم يعد بمقدور أحد أن يقول للآخر مثلاً "أنا أمتلكك"، فالجميع هم ملك المسيح الذي اشتراهم بدمه (رؤ٥: ٩ — ١٠؛ ايو ١: ٧ ؛ ٢: ٢). من هنا ضرورة الإضاءة على ملاحظات ثلاث. أولاً، إن كان بولس قد طلب من العبيد الخضوع لسادتهم (أف ٦:٥–٩) فذلك ليس بهدف الطاعة، بل بسبب الانجيل. إن معرفة الرّب تصحّح مسار كل مؤمن، وتصحّح بالتالي العلاقات المتبادلة. وكما في مسألة الخضوع المتبادل "بعضكم لبعض" (٥: ٢١)، يتجذّر هذا الخضوع في معرفة حقيقية للمسيح، معرفة تصحّح كل العلاقات البشريّة.

ثانيًا، في المقطع الذي يعنون عادة "خضوع المرأة"، يجب الانتباه الى الطريقة الموسّعة والمباشرة (آ٢٥ — ٣٣) التي يصف فيها بولس خضوع الزوج. لا يقول الرسول علنًا "أيها الأزواج اخضعوا لنسائكم..." لكن "أيها الأزواج، أحبّوا نساءكم كما أحب المسيح كنيسته، فأسلم ذاته لها (لأجلها)" (آ ٢٥). وكيف أحبّ المسيح كنيسته؟ مات من أجلها! أيقول بولس للأزواج "موتوا من أجل نسائكم"؟

ثالثًا، يجب وضع هذا النص في إطار فكر بولس حول العلاقات الزوجية. في ١كو٧ نجد توازنًا مدهشًا في هذه العلاقات. يعلن بولس أولاً أن "المرأة لا سلطة لها على جسدها بل زوجها" (١ كو ٧: ٤أ)، وهو تأكيد مقبول من الجميع، وخاصة في المحيط الشرق أوسطي حيث تعتبر المرأة من ممتلكات الرجل، لكنّه يكمّل مقدِّمًا فكرة أبعد ما تكون عن الشعبيّة، فيصرّح بأن "الرجل لا سلطة له على جسده، بل المرأة" (١كو ٧: ٤ب). هنا جوهر ما يريد بولس إفهامه للأزواج. يتماشى فكره مع فكر المسيح، فيفترض توبة عميقة في العقلية الذكورية، عقلية الأزواج المشرقيين، بما يخص العلاقات الزوجية، فيُدخل علاقة الزوج تجاه امرأته في صلب مشروع الله[٤].

لكن الأهم في "اللائحة" يبقى الأساس الذي يضعه بولس لتعاليمه وحياته. فهذه التوصيات لا تُفهم إلا على ضوء الانجيل الذي تلقّاه المؤمنون الذين يتوجّه إليهم القديس بولس. رسالة بولس والرسل، هي أيضًا رسالة الجماعة المسيحية بأكملها، ورسالة كل فرد منها بمفرده. فواجب إعلان الانجيل يفترض الانتباه من أن يتحوّل المسيحي إلى مثال شك أمام تقبّل الوثنيين للإنجيل، من خلال سيرة لا تعطي صورة صحيحة عن المسيحية. هذا ما يتّضح من

[٤] كما يسوع في الانجيل، يعود بولس الى نص تك٢: ٢٤ "يترك الرجل اباه وأمه ويتعلّق بامرأته، ويصير الاثنان جسدًا واحدًا" (اف ٥: ٣١). صحيح ان هذا النص يعيدنا الى إطار تاريخي يقوم على سلطة الأمهات، لكن بولس يتكلم في محيط أبائي حيث المرأة تتبع الرجل. وما المقصود؟ انها دعوة الى الأزواج للتغيير الجذري، تقوم على علاقة دائمة مع نسائهم لا يمكن لها الانحلال، يدعوهم الى الوحدة التامة كل رجل مع زوجته، كما يطلب من الزوج التضحية الكاملة، على مثال المسيح، ليجعل من زوجته كاملة مقدسة، بلا لوم. من هذا المنطلق على الزوج أن يتفانى في سبيل سعادة امرأته.

النصوص الموازية لموضوع طاعة النساء والتي تجمع ثلاثية "النساء والعبيد والمواطنين". فحيث الكلام عن المواطنين، يبدو للكلام عن الأنجلة أهمية كبرى "لئلا يجدَّف على الإنجيل" (١تيم ٦: ١؛ تيط ٢: ٥)، "ليخلص كل البشر ويعرفوا الحق" (١ تيم ٢: ٤؛ تيط ٢: ١٠) بحسب إرادة الرب التي تتطلّب من المؤمن تصرّفات معيّنة. إن الظروف التي تحيط مناشدات بولس بالخضوع تنيرنا لفهم ما يطلب: لكي يُعلن الانجيل (كو ٤: ٣، ٥؛ أف ٦: ١٩).

ثمّ أن بولس يتكلّم بحسب إطار واقعي، ففي كل الرسائل التي نرد فيها مثل هذه المناشدات، يسمح الإطار باستنتاج وجود حقيقي لفوضى، أو أقلّه خوف من إمكانية وقوعها. كان خوف الرسول مشروع، فقد أحدث الانجيل عند المسيحيين والمسيحيّات وعيًا جديدًا لكرامتهم ومساواتهم، جعل بعض المواطنين والنساء والعبيد، الذين لم يكن لهم اعتراف بالاحترام والحقوق المشروعة، ينضوون بعد أن اكتشفوا الانجيل، في حركات تطالب بحقهم في المساواة على الأصعدة الاجتماعية والسياسية والدينية... مما جعل المراقبين يروون فيها مسبّبًا للفوضى. كان من الطبيعي للمواطنين، بعد اهتدائهم، أن ينتفضوا ضدّ حالات الإخضاع، فيرفعوا رؤوسهم وأصواتهم ويحاولوا الوقوف موقف السيّد الحرّ المتساوي إنسانيًا مع الحكّام والملوك، وأن يواجه العبيد أسيادهم بجرأة يجد فيها هؤلاء وقاحة كبرى، وأن تعامل النساء أزواجهن بخضوع أقلّ. بحد ذاته، خلق الإنجيل تيارًا تحرريًا، أقل ما يقال فيه أنه خطر على الاستقرار. لكن بولس كان واعيًا للأمر. فالإنجيل لا يهدف إلى خلق تصرّف كهذا، لكن الوعي الذي يولّده يؤدي بالناس الى المطالبة بالاحترام الذي يحق لهم، وهو ما لم يكونوا قد سمعوا به قبلاً. ولكن كيف يمكن إيجاد الخط الفاصل بين الوقاحة والعلاقة الأخوية البسيطة؟ كيف يمكن أن يتوجّه مراهق الى معلّمه باسمه الصغير، دون أن يكون وقحًا عديم الاحترام لمن هو أكبر منه؟ وكيف يمكن للرئيس أن يكون أخًا للمرؤوس، فيستطيع هذا الأخير أن يخالفه الرأي دون أن يُعدّ ذلك تطاولاً؟ وكيف للمرأة أن تعامل زوجها على قدم المساواة دون خلق مشاكل بيتيّة واجتماعيّة؟

عاش المسيحيون الجدد صراعًا صعبًا في مجتمع كانت فيه الطبقات الاجتماعية، والأنظمة التي ترعى هذه الطبقات شبه مقدّسة، لا تُمسّ. في القضايا المهمّة، كما في غيرها، لم يكن من الوارد اجتماع الرجال مع النساء، او الأسياد مع العبيد، أو الحكّام مع المواطنين، فكان خطر التمادي في الكلام او في التصرفات كبيرًا[٥]، مما أجبر بولس على تكرار التوصيات والمناشدات للعودة الى الأنظمة المرعيّة الإجراء، وعدم خلق الفوضى، والانتباه الى المطلوب الأول في كل عمل، ألا وهو الانجيل.

---

[٥] هذا ما نقرأه عند طيطس – ليفوس من القرن الأول. M. F. LEFKOWITZ et M. FANT, éd., Women in Greece and Rome, Toronto, Samuel-Stevens, 1977, p. 135. *"لو أن كل رجل من بيننا ، ايها المواطنون الأحباء، أقر قانونًا يفرض الزوج بموجبه سلطته على أم اولاده، لكنا واجهنا صعوبات اقلّ مع النساء عامة؛ فقد أصبحت حرّيتنا مصادَرة اليوم من قبل النساء، انها محتقرة ومدوسة بالأرجل هنا في الساحة العامة [...] فكيف نصف تصرّفا كهذا ؟ المرور بالعلن، سدّ الشوارع والتكلم الى رجال النساء الأخريات ؟ ألم يكن بامكانكن طرح الاسئلة عينها على أزواجكن في البيت؟ [...]"فهل تأملون بأن يضعن حدا لحريتهن ؟ عليكم ان تقوموا بشيء ما، أقله أن تفرضوا عليهن ما هو متعارف عليه، أو ما يفرضه القانون الذي تعتبرنه كاهانة. انحن يردن الحرية، بل التحرر في كل شيء* [...] . وما أن تبدأن بأن تكنّ مساويات لنا حتى *تطلبن بأن تكنّ رئيساتنا*

الإنجيل ثمّ الإنجيل

لا تشكل مسألة حصول الإنسان، كائنًا مَن كان، رجلاً او امرأة أو عبدًا أو غيره، أولوية في الإنجيل. بل تكمن أهمية قبول البشرى السارة في ضرورة تحوّل كل مسيحي الى مبشِّر، مؤنجِل. لم يكن موضوع حقوق المرأة او تحرير العبيد يشكّل همّ بولس الأول او اهتمامه الأكبر، بل كان كل همّه يكمن في العمل على إعلان البشرى السارة انجيل يسوع في كل الأرض. كان بولس يعرف أنه سينتج من هذا الإعلان تحسّن الأحوال الإنسانية برمّتها، بما فيها أحوال النساء والعبيد. فمجرّد خلق علاقات جديدة بين الأسياد والعبيد، وبين الأزواج ونسائهم، وبين المواطنين والحكّام، يؤدي دون أي شك الى إيجاد أنظمة مؤسساتية أكثر إنسانية. من خلال متابعتنا لقراءة الرسالة الى أفسس، يتّضح لنا أن معنى النصوص التي تدعو إلى الخضوع، لا تفهم إلا من خلال هذا الهمّ الانجيلي الرسولي.

يوم كان بولس يكتب دعواته الى الخضوع، كان المسيحيون قد وعوا كرامتهم واختبروا بعض التطرّف في المطالبة بها. لما كان بولس رأى في ذلك داعيًا للقلق، لو أنه اقتصر على الشؤون الداخلية في الجماعة المسيحية. ولكن أن يرى الوثنيون في الانجيل سببًا داعيًا للفوضى والتفلّت فيجدّفون عليه، فإن ذلك يصبح خطرًا على انتشار البشرى وهذا خطّ أحمر. كان بولس حذرًا وفطنًا، يعرف كيف يتصرّف بحكمة في ظروف زمنه ومجتمعه[٦].

ويبقى أن نص اف ٦: ١٠ — ٢٠ هو دعوة إلى الجهاد الروحي. ليس على المسيحيين، بحسب بولس الرسول ان يقاوموا اللحم والدم، بمعنى ان تقاوم المرأة زوجها والعبد سيده، والمواطنون حكّامهم. فالمقاومة الحقيقية هي على مستوى أعمق من المطالبات قانونية كانت أم سياسيّة الآنية. على المستوى القانوني أو السياسي. المقاومة الحقّة هي من أجل الحق، فالمطلوب إذًا ليس الاهتمام بحقّ انساني خاص، بل طرد خطيئة الكبرياء الكامنة في قلوب الأسياد والحكّام والأزواج... ولن يتأتى هذا التحوّل في الذهنيّات من انتفاضات اجتماعية، أو من مقاومة لأشخاص معيّنين.

"لبستم سلاحًا" يقول بولس، فأنتم في صراع، وقد اشتعلتم غيرة للإنجيل أي أن ما يحرّككم ويدفعكم للعمل هو هذه الغيرة، وهي ما ستحقّق التقدّم الحقيقي أي التقدّم بالرب. بمقدار ما يُعلن الانجيل ويُقبل، بمقدار ذلك تتحسّن العلاقات بين الزوجين، وبين الأسياد وعبيدهم كما بين الحكّام ومواطنيهم.

---

[٦] ومن المفيد في هذا الإطار، العودة الى الأسباب التي كانت في أساس اضطهاد المسيحيين، في نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني. كانت كل حجج الاضطهاد تدور حول المواضيع التي طلب فيها بولس من المسيحيين أن يخضعوا. عندما كان العدو يدقق النظر في الجماعة المسيحية، كان يرى فيها خطرًا على البشرية من حيث التصرفات التي لم يكن يفهم مبرراتها: رجال ونساء يشاركون في تجمّع واحد ليلاً؛ أسياد وعبيد يأكلون على مائدة واحدة ومن طبق واحد؛ سيّد يعامل عبدًا باحترام غريب، وعبدٌ يتوجّه الى سيّد ببساطة وحميمية؛ شخص لا قيمة اجتماعية له يعلّم ضابطًا في الجيش؛ أو مسؤولاً في الدولة يطرح اسئلة على انسان أدنى منه مرتبة لينيره بما لا يعرف. لا تمييز بين غني وفقير، ترتدي النساء الشريفات ثيابًا بسيطة دون جواهر او حليّ، تمامًا كما الإماء والجواري! عندهم احترام لقيصر، ولكن كانسان يتمتع بسلطة تلقّاها من الله لفترة معيّنة يؤدي عليها حسابًا، وليس كإله. رأي الأعداء في هذه الحياة المسيحية إلحادًا، وفوضى، ومجونًا... وهي صفات جعلت من المسيحيين مكروهين منبوذين من الوثنيين. كانت أصعب الاضطهادات وأكبرها هي التي عانى منها المسيحيون من قِبل مواطنيهم، تحت شكل هيجان شعبي، ناتج عن قناعتهم بأن هؤلاء المسيحيين هم أعداء الانسانية. لماذا؟ لأن المسيحية وضعت كل تفاصيل الحياة اليومية موضع تساؤل: العلاقات الزوجية، العلاقات بين الأسياد والعبيد، والعلاقات بين الحكّام والمواطنين. كان ذلك كافيًا ليكون خطر المسيحية أكبر من أن يُحتمل، في مجتمع واضح التنظيم، محدَّد العادات والتقاليد الاجتماعية المرتبطة بالمستويات والطبقات.

"أيتها النساء إخضعن لأزواجكن"؟

بالرغم من كل ما ورد، يبقى أن لفعل الأمر "إخضعن" مكانًا واسعًا في الأذهان، يستحق أن يأخذ حيّزًا من الدراسة عن قرب. درجت كل الترجمات على ترجمة فعل "hypotassein " بـ"خضع"، وقد ورد في نص أفسس في صيغة اسم المفعول لجمع المذكر (hypotassomenoi): "كونوا خاضعين بعضكم لبعض". لكن، لدراسة الفعل، يجدر بنا معرفة استعمالاته في العهد الجديد[٧].

يستعمل هذا الفعل دائما في إطار العلاقات بين بشر أحرار، بعيدًا عن أي إكراه، وعن أي خضوع من شخص لشخص لآخر. والفعل يعود دائمًا الى الفاعل: "أنا أخضع" ويجب أن أريد ذلك. لا يمكن إجبار الشخص على الخضوع لآخر، بل ان المعني هو من يقرِّر أن يخضع بكامل حريّته، لا لظروفٍ بل لإنسان آخر. والإطار الذي يُستعمل فيه هذا الفعل، يهدف دائمًا إلى العيش معًا، وإلى القيام بعمل مشترك من أجل خدمة هدف سامٍ. هذا الهدف هو الأنجلة بحسب القديس بولس.

من هم الخاضعون؟ طبعًا النساء لأزواجهن، لكن الإطار يُظهر تمامًا، أن الأزواج هم أيضا خاضعون لنسائهم (أف ٥: ٢١ ؛ ٥: ٢٥ – ٣٣)، والعبيد لأسيادهم، والمواطنون لحكّامهم. لكن الملاحظة الأهم هي ان الفعل المستعمل هنا، يستعمل أيضًا للعلاقات بين الملائكة والمسيح (١ بط ٣: ٢١) ؛ وبين الكنيسة والمسيح (اف ٥: ٢٤)، كما ستعمل في حالة الأشياء الخاضعة للمسيح (فيل ٣: ٢١)، وبين المسيح وأبيه (١كو ١٥: ٢٨)؛ وبين يسوع ووالديه (لو ٢: ٥١).

إن فهِمنا حالة خضوع المسيح لأبيه كتسلط للآب على الابن، نقع في خطأ لاهوتي مسيحي. ولكن إن كان هذا الأمر أبعد مما يطاله فكرنا، فيجب علينا بالأحرى أن نفهم بماذا تخضع الكنيسة للمسيح وكيف. فالمسيح يسوع لا يمارس أية سلطة على الكنيسة، بل الكنيسة هي التي تخضع حرّة للمسيح في طاعة الايمان.

---

[٧] نرى أن الافعال اليونانية التي يمكن ترجمتها بـ"خضع" عديدة، منها:

- Katergazomai: يرد ٢٢ مرة في العهد الجديد منها ٢٠ مرة في النصوص البولسية، ويعني كون الانسان في وضع المستعبد.
- Katadouloô: إخضاع الإنسان لسلطة ما (٢كو ١١: ٢٠ ؛ غل ٢: ٤)
- Epitrepô: إخضاع شيء ما لانسان. يرد في العهد الجديد بمعنى "سمح". اسمح لي بالذهاب لأدفن أبي" (مت٨: ٢١) ونجده أيضًا ١٧ مرة أخرى.
- hypoballein: ترك الذات تحت إمرة آخر (أع ٦: ١١)
- peithomai: الخضوع لأوامر أحد ما ولإرادته. ويرد في العهد الجديد بمعنى الاستسلام بثقة.
- Damazô: ترويض (مر ٥: ٤ ؛ يع ٣: ٧، ٨)
- Hypeikô: استسلام (عب ١٣: ١٧)
- einai hypo, echein hypo, ginesthai hypo: كون الإنسان تحت إمرة أحد ما، السيطرة على أحد ما.
- Hypecho: تحمّل عقوبة (يهوذا ٧)
- Enechô في المجهول: معتقَل، خاضع (غل٥ : ١ ؛ ٢ ش١: ٤).

في المعلوم بمعنى أن يكون لأحد شيء على الآخر (مر٦: ١٩ ؛ لو ١١ : ٥٣)

ترجمت كل هذه الأفعال بـ"نخضع" مما ينفي إمكانية فهم الفوارق بينها وميزات كل منها.

لا يحمل فعل hypotassein إذًا أي معنى للتسلّط، ولا للقدرة التي تفرض نفسها، ولا للتابعية المفروضة. بل على العكس، يبرز معنى الطاعة كإرادة حرّة تسعى لخلق ظروف تسمح بالمشاركة، من اجل هدف موحّد. هذا التعريف يجوز لكل خضوع في العهد الجديد: خضوع يسوع لأبيه، والكنيسة مع المسيح، والانسانية مع المسيح، والرجل مع المرأة، والعبد مع السيد، والطفل مع الوالدين، والمواطن مع الحاكم.

صحيح أن في تركيبة الفعل نجد الجذر الذي يعني "أمر" كما في العسكر، ولكن ليس في ذلك ما يعاكس دراستنا للفعل. فأثناء المعركة مثلاً، لا تأتي أوامر القائد بناء على نزوة معيّنة من قبله، يريد فيها أن يرى الجنود في وضعية تفرحه. بل بل تأتي ليأخذ كل شخص المكان المعيّن له، والذي يضمن السلامة العامة والسلامة الشخصية، والنجاح. هذا هو المعنى الذي أراده بولس من استعماله لهذا الفعل: ليأخذ كلٌ مكانه ليقوم في صراعه. ليأخذ مكانه الخاص وليس المكان الذي يفرضه عليه ديكتاتور ما. ليحافظ كل انسان على مهمته، في المكان المعيّن له، لأن في ذلك خير الجماعة كلها. من الطبيعي ان يكون في ذلك طاعة، لكنها طاعة التوبة إلى الإيمان الحق، لأن لا وجود لأي علاقة تقوم على سيطرة مفروضة في العلاقات المسيحية.

في كلّ الأحوال، عاش بولس خدمته الرسوليّة بحسب قناعاته، وشارك رجالاً ونساءً في همّ حمل بشارة الإنجيل، ولم يفرّق بين إنسان وآخر لا على مستوى الجنس ولا على مستوى الجنسيّة.

نساءٌ في عمل البشارة

تألفت الجماعات التي أسسها بولس من تلامذة متساوين. فدراسة التحيّات التي يوجهها الرسول في خاتمة رسائله تمكّننا من الملاحظة بأن الجماعات البولسية ضمّت مختلف الفرق الاجتماعية التي كانت موجودة في العالم الروماني، وان النساء أخذن فيها مكانًا مهمًا[٨]. يكفي أن نذكر فيبة شمّاسة كنخرية (رو ١٦: ١) التي يعترف بولس بخدمتها: "أوصيكم بأختنا فيبة Diakonos "خادمة" كنيسة كنخرية (مرفأ كورنتس الشرقي) ... لأنها أسعفت prostasis كثيرًا من الاخوة وأسعفتني أنا أيضًا". والزوجين برسكيلا وأكيلا اللذين كانا قد طُردا من ايطاليا وأقام بولس عندهما وعمل معهما بالرسالة (أع ١٨: ٢-٣). تبعا بولس من كورنتس الى أفسس (أع ١٨: ٨). وبعد ذهابه أخذا على عاتقهما متابعة تنشئة أبلس المسيحية، وهو يهودي من الاسكندرية عارف بالكتب (١٨: ٢٤-٢٧)[٩]. يسمي بولس هذين الزوجين "معاونيّ في المسيح يسوع" (١٦: ٣) وهي صفة يعطيها عادة لمعاونيه المباشرين في عمل الانجيل[١٠]. وأندرونيكس ويونيا "

---

[٨] في رو ١٦: ٣-١٦ يذكر بولس إسميًا ٢٦ شخصا منهم ١٦ رجلا و٩ نساء، اضافة الى اثنتين لا يذكر اسمهما (أم روفس وأخت نيريوس) اضافة الى النساء من أهل بيت أرستوبولس وأهل بيت نركيسوس (١٦: ١٠-١١)، وبين الاخوة القديسين (١٦: ١٥). والجدير بالذكر الى أن بولس يذكر في هذا النص زوجين هما فيلولوغس وجوليا؛ ونيريوس وأخته الذين ربما كانا زوجان رسوليان كما بريسكيلا وأكيلا في حال كانت عبارة أخت تعني ما هي عليه للجماعة.

[٩] وبحسب النص الاسكندراني لكتاب الأعمال، كان الأثنان يتحمّلان مسؤولية التعليم didascale ويسمي النص بريسكيلا أولا، في حين لا يعطي النص الغربي صفة "didascale" الا لأكيلا وحده. فهل يعني هذا الاختلاف ان المعطيات التاريخية حذفت أثناء تناقل النص لأنها تتناقض مع ممنوعات ١ تيم ٢: ١٢ ؟

[١٠] يذكر برسكيلا أولا مما يدل على دورها المهم والأساسي (راجع ١ كو ١٦: ١٩ حيث يسمّي أكيلا أولا).

نسيبيّ ورفيقيّ في السجن بحسب قول بولس، وهما من المشهورين بين الرسل، بل اهتديا قبلي الى المسيح"، ولهما معه روابط قرابة وأسر[١١] (رو ١٦:٧). وفي رو ١٦: ١٢-١٦ يوصي بولس بمريم وتريفينة وتريفوسة وبرسيس وقد "تعبن كثيرا في خدمة الرب"، علما بأن بولس يستعمل فعل kopian للدلالة على عمل التبشير الذي يقوم به بنفسه أو الذي يتممه غيره[١٢]. (١ كو ١٦:١٦؛ ١ تس ٢:٥).

وبحسب الرسالة الى فيليبي كان لأفودية وسنتيخة مكانًا بارزًا في هذه الكنيسة المنظّمة وذلك مع الاساقفة والشمامسة" (١: ١). ويرى بولس ان السلطة التي تمارسها هذه النساء في جماعة فيلبي كبيرة. لذلك يشجّعهما على تخطّي الخلافات "في المسيح"، والاتفاق فيما بينهما كي لا تتسببا بضرر للرسالة المسيحية، مع توصياته للمؤمنين بأن يساعدوهما "لأنهما جاهدتا معي في خدمة البشارة هما وكليمندس وسائر معاونيّ"(٤: ٢-٣).

لم يتراجع بولس مرّة عن قناعته بأن المسيح ألغى كل الحواجز بين البشر، فلم يعد هناك "رجل ولا امرأة..." (غل ٢٣:٣-٢٨)، لأن التبرير بالايمان يقود المؤمنين الى حالة جديدة امام الله هي حالة ابناء الله (٣: ٦). وتأتي الآيات ٢٧ و ٢٨ لتأكيد ذلك : بالمعمودية نصل الى هذا الوضع الجديد والهوية الجديدة التي تترجم عمليا بسقوط كل تمييز ديني (يهودي ويوناني)، أو اجتماعي (عبد وحر)، أو ديني-اجتماعي-طبيعي (رجل وامرأة). فالفكرة اذا واضحة: من منطلق الايمان، يتخطّى الإنسان بالمعموديّة كل أصل اجتماعي او ديني بالمعمودية "ليلبس المسيح". فالمعمودية هي العبور من هيكلية تراتبية الى نظام المساواة. هنا يكمن التجديد الذي يلغي الامتيازات التي يعطيها الدين لليهودي، والتي تعطيها السياسة للمواطن، والتي يعطيها الدين والمجتمع للذكور، وفي ذلك نهاية للشريعة، لأنه بالشريعة يأخذ اليهود مكانا يختلف عن مكان المتهّود، ويأخذ العبد مكانًا مغايرًا لمكان السيّد، ويستأثّرالرجل بمكان لا يعطى للمرأة[١٣].

خاتمة

---

[١١] ذُكِّر اسم يونيا (يونياس) في عملية تناقل النصوص لأن الكتبة لم يكونوا ربما قادرين على التصوّر بأن القديس بولس قد أعطى لقب رسول لامرأة، وفي قول الرسول انهما "مشهورين بين الرسل" يعني أن المرأة كما الرجل كانت تعلن الأنجيل (١٦: ٧).

[١٢] في ١ كو ١٦: ١٦ يناشد بولس المؤمنين بأن يسمعوا لهم ولكل من يعمل ويتعب معهم"؛ وفي ١ تس ٥: ١٢ يناشدهم بأن "تكرموا الذين يتعبون بينكم ويرعونكم في الرب ويرشدونكم" ؛ فمن الضروري الانتباه الى ان بولس يستعمل الفعل اليوناني kopian "عمل"، "تعب" ليس فقط للكلام عن تبشيره وتعليمه، بل عن تعب النساء وعملهن أيضا.

[١٣] قد أدّت دراسة غل٣: ٢٣-٢٨، ان من ناحية الألفاظ، أو من حيث ادخالها في ١ كو١٢: ١٣ "فنحن كلنا يهودا كنا أم غير يهود، عبيدا أم أحرارا"، وفي كول ٣: ١١ "فلا يبقى هناك يهودي أو غير يهودي، ولا مختون أو غير مختون، ولا أعجمي أو بربري، ولا عبد أو حر..." (دون أن نجد "رجل أو امرأة)، أدت بالشارحين الى الافتراض بأن بولس يستشهد بعار كان منتشرا في الجماعات المسيحية الاولى، للتأكيد على أنه بالمعمودية تنهار الامتيازات والأدوار المثبتة من قبل المجتمع والدين، وفي ذلك عودة الى لاهوت الخلق تماما كما نقرأ في سفر التكوين " خلق الله الانسان على صورته ومثاله، وهو ما نجده وراء ١ كو ١١.

M. BOUTTIER, "Complexio Oppositorum : sur les formules de 1 Cor 12,13; Gal 3, 26-28; Col 3, 10-11 " New Testament Studies 23, 1976, p. 1-13.

نقلت انطلاقة الرسالة البولسية المسيحية من الاطار الفلسطيني القروي، الى اطار المدن الهلينية الكبرى حيث تفاعلت وتداخلت ولعبت دورًا جذابًا في بيئة تتميّز بالانقسامات الاجتماعية والثقافية والجنسية[١٤]. ان المشادات والاضطرابات بين الرجال والنساء في كورنتس هو علامة إضافية للأهمية التي وُجدت في المسيحية البولسية للمشاركة النسائية. فأن توفّر المسيحية مناسبات عامة للاختلاط بين النساء والرجال، وهو ما كان نادرًا في المجتمع اليوناني–الروماني، جعل الكنائس تستنتج أن تعلّم الحياة الجماعية وعيشها يمرّ بالنجاح وبالفشل. نستطيع اذا ان نلخّص نظرة بولس للمرأة بالتالي: لا يرتكز بولس على غل٣: ٢٨ ليكسر حالة التبعية الاجتماعية التي تحياها المرأة، مع أنه لا يحطّ من كرامة المرأة ومن دورها. فحتى ولو لم يدعم تمامًا سلطة الرجل كقوة تسود المرأة، فان بولس لا يشدّد على حرية المرأة تجاه الرجل والمجتمع كما يتمنى عالم اليوم. لم يكن هم الرسول الأول العمل على المطالبة بحقوق المرأة (أو الطفل أو العبيد الخ.)، بل محاولة ادخال تصرّف المؤمن ضمن هيكلية المجتمع، كما نجح في ادخال المسيحية في عالم ثقافي غير يهودي، لاقتناعه بأنه لا يمكن للمؤمن أن يكون شاهدا للمسيح في مجتمع يرفض بنيته وثقافته. وعليه فان بولس يدعو المؤمنين للدخول في هيكلية الدولة الرومانية التراتبية، ليس لقبولها كما هي، بل لعيشها بطريقة مغايرة " فليحترم المؤمن السلطة لأن السلطة هي بخدمة الله" (رو ١٣)، وليقبل العبد حالته، ولكن على السيد والعبد أن يقبلا بعضهما البعض كإخوة (١ كو ٧: ٢١–٢٣؛ فيلمون)... وليبقَ الرجل رأس المرأة (١ كو ١١: ٣) ولكن ليكن رأسًا بحسب مفهوم المسيح الذي محى كل علاقات القوة.

[١٤] نعرف ان نجاح الديانات السرية الشرقية عند النساء خاصة، يعود الى عامل مشابه للمسيحية، أي المشاركة بديانة خلاصية تجمع أتباعها في جماعات مختلطة ومتساوية.